

مختصر عن الدولة الأيوبية

د. محمد بلال جيليك

اياد عبد الخالق رستم

تركيا جامعة صقاريا

كلية فن الأبيات - قسم التاريخ

تعتبر الدولة الأيوبية من أهم الدول الإسلامية التي حكمت مصر والشام في العصور الوسطى. فقد لعبت دورًا مهمًا في هزيمة الصليبيين وتحرير القدس، كما ساهمت في ازدهار الحياة الثقافية في المنطقة. تأسست الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي في مصر عام ١١٧١، بعد أن أطاح بآخر الخلفاء الفاطميين. كان صلاح الدين قائدًا عسكريًا موهوبًا، وقد تمكن من هزيمة الصليبيين في العديد من المعارك، أبرزها معركة حطين عام ١١٨٧، والتي أعادت القدس إلى المسلمين. ازدهرت الحياة الثقافية في العصر الأيوبي، حيث شهدت حركة علمية وأدبية وفنية نشطة. وقد ساهم في ذلك العديد من العلماء والأدباء والفنانين الأيوبيين، أبرزهم الشاعر ابن الرومي والفيلسوف ابن رشد والطبيب ابن النفيس. بعد وفاة صلاح الدين عام ١١٩٣، توسعت الدولة الأيوبية بشكل كبير، حيث امتدت لتشمل مناطق جديدة في الشام والحجاز واليمن والنوبة. وقد ساهم في ذلك كفاءة حكامها العسكريين، ودعم الخليفة العباسي لهم. بدأت الدولة الأيوبية في الضعف في القرن الرابع عشر، حيث تعرضت لسلسلة من الهزائم أمام المغول والتتار. وقد انتهى حكم الأيوبيين في مصر عام ١٢٥٠، عندما قامت شجرة الدر بقتل آخر سلاطين الأيوبيين، توران شاه.

The Ayyubid state is considered one of the most important Islamic states that ruled Egypt and the Levant in the Middle Ages. It played an important role in defeating the Crusaders and liberating Jerusalem, and it also contributed to the flourishing of cultural life in the region. The Ayyubid state was founded by Saladin al-Ayyubid in Egypt in 1171, after he overthrew the last Fatimid caliphs. Saladin was a talented military leader who defeated the Crusaders in several battles, most notably the Battle of Hattin in 1187, which returned Jerusalem to the Muslims. Cultural life flourished in the Ayyubid era, as it witnessed an active scientific, literary and artistic movement. Many Ayyubid scholars, writers, and artists contributed to this, most notably the poet Ibn al-Rumi, the philosopher Ibn Rushd, and the physician Ibn al-Nafis. After Saladin's death in 1193, the Ayyubid state expanded significantly, extending to include new territories in the Levant, Hijaz, Yemen, and Nubia. The competence of its military rulers and the support of the Abbasid Caliph for them contributed to this. The Ayyubid state began to weaken in the fourteenth century, as it suffered a series of defeats against the Mongols and Tatars. The Ayyubid rule in Egypt ended in 1250, when Shajarat al-Durr killed the last Ayyubid sultan, Turan Shah.

المقدمة

أصبح بمقدور الدولة الأيوبية على عهد ملكها صالح الدين بأن تمارس الحكم السياسي في اليمن إذ استطاعت هذه الدولة بأن تخضع اليمن إلى نفوذها منذ سنة 569هـ/١١٧٤م. إذ يعود الدور الأكبر إلى الملك تورانشاه بن أيوب في فرض مثل تلك السيطرة إلا أن وفاة هذا الملك سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م. فسح المجال أمام نوابه من الأمراء الأيوبيين في التحرك باتجاه الاستقلال عن دولة صالح الدين في مصر والشام. وبعد أن تمكن الأيوبيون من إنهاء حكم الخلافة الفاطمية وفرضوا سيطرتهم على مصر وبلاد الشام واليمن والحجاز أخذوا بممارسة سياسة تعسفية ضد القبائل العربية التي لا تدين بالولاء للأيوبيين مما دفعها إلى الخروج بحركات معارضة، إلا أن حركات المعارضة في هذه الدول بقت شوكة في خاصرة الأيوبيين بسبب ممارسات السلاطين الأيوبيين التعسفية وسوء إدارتهم للبلاد على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كما أن النزعة الاستقلالية لأبناء اليمن دفعتهم لرفض أي وجود اجنبي على أراضيهم مما جعل أبناء هذه البلاد أن ينظموا أنفسهم في حركات مناوئة للحكم الأيوبي.

١. نشأة الدولة الأيوبية قامت الدولة الأيوبية الإسلامية في مصر وانتشرت في أجزاء من بلاد الشام والحجاز واليمن والنوبة والمغرب العربي. ويعتبر صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية. وذلك بعد أن عين وزيراً للخليفة الفاطمي عديد الدين العلا وممثلاً للسلطان نور الدين محمود في مصر. عمل على تأمين كافة السلطات في مصر في ظل الحكم العباسي، وأصبح الحاكم وأعاد مصر إلى وضعها كدولة، ومنع الصلاة على الخلفاء الفاطميين، ودعا على الخلفاء العباسيين، المركز الفاطمي الشيعي، ينشر التعاليم السنية. (شمس الدين، ٢٠٠٢: ٢٠٣) بعد وفاة نور الدين زنكي توجه صلاح الدين إلى بلاد الشام، فدخل دمشق، ثم ضمَّ حمص ثم حلب، وبذلك أصبح صلاح

الدين سلطاناً على مصر والشام. كانت دولة الأيوبيين قد امتدت إلى بلاد الحجاز، حيث قام صلاح الدين بتحسين جنوب فلسطين، والاستعداد لأي أمر يقوم به أرناط صاحب قلعة الكرك، والذي كان يدبر للهجوم على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وكان صلاح الدين قد اعتنى بميناء القلزم وميناء جدة، لأن أرناط كان قد عمّر أسطولا في ميناء أَيْلَة (العقبة)، وأرسل سفناً بلغت عِيذاب، فاستولى صلاح الدين على أَيْلَة. استرد صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر ١١٨٧ م، بعد ثلاثة أشهر من انتصاره في معركة حطين، عقب ذلك سقطت في يده كل موانئ الشام، ما عدا مينائي إمارة طرابلس وأنطاكية، وانتهت الحرب الصليبية الثالثة بسقوط عكا بيد الصليبيين، وتوقيع صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد. (مؤنس، ١٩٨٧: ٢٧٠) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ بعد أن قسم دولته بين أولاده وأخيه العادل، ولكنهم تناحروا فيما بينهم، وظل بعضهم يقاتل بعضاً في ظروف كانت الدولة تحتاج فيها إلى تجميع القوى ضد الصليبيين. بعد وفاة العادل تفرقت المملكة بين أبنائه الثلاثة الكامل محمد على حكم مصر، والمعظم عيسى على دمشق وما حولها، والأشرف موسى على باقي الشام، لم يكد يتوفى العادل أبو بكر حتى انهال الصليبيون على الشام ومصر وخصوصاً مصر في ثلاث حملات صليبية متتابعة أرغمت الكامل محمد على أن يتنازل طواعية عن بيت المقدس للملك فريدريك الثاني سنة ٦٢٥ هـ الموافق ١٢٢٨ م. اختلف الأشرف موسى مع المعظم عيسى على حدود النفوذ في الشام والجزيرة ووقعت بينهما الكثير من المشاكل والاضطرابات كرسفت الفتنة وعمقت أسباب الخلاف ومهدت لمزيد من التخبط وفتحت طريق سقوط الدولة. (المنصوري، ١٩٩٥: ٤) وُلِّي بعد وفاة الكامل محمد ابنه الصالح أيوب وذلك سنة ٦٣٧ هـ، والذي استرد بيت المقدس ودمشق وعسقلان بعد تحالفه مع القوات الخوارزمية الهاربة من الغزو المغولي. في آخر حياة الصالح أيوب هجمت الحملة الصليبية السابعة على مدينة دمياط يقودها لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧ هـ، فربط الصالح أيوب بالمنصورة، وهناك أصيب بمرض شديد تقاوم عليه حتى مات، فأخفت جاريته أم خليل الملقبة شجر الدر خبر موته وأرسلت لولده الأمير توران شاه وكان بالشام، فقاد الجيوش المصرية وحقق انتصاراً كبيراً على الصليبيين، وأسر ملكهم لويس التاسع. لما حقق توران شاه انتصاره على الصليبيين استدار إلى زوجة أبيه وباقي قادة الجيش وكانوا جميعاً من المماليك البحرية، وخطط للتخلص منهم وعزلهم، جعلت هذه الأمور شجرة الدر تتآمر مع المماليك على قتل توران شاه، فهاجموه في ليلة ٢٨ محرم ٦٤٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٢٥٠ م وقتلوه، وبذلك انتهت الدولة الأيوبية. (الدوادي، ٢٠٠١: ٧٣) وقد تحدث المؤرخون عن النسب الأيوبي واختلفوا حول هذا النسب، ولكنهم اتفقوا على أن جد الأيوبيين هو الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شادي (أو شاذي) بن مروان. كتب كل من ابن الأثير وأبو شامة وابن العديم وابن خلكان وغيرهم عن نسب الأيوبيين، ولكنهم لم يجمعوا على رأي واحد، ولم يبتوا نهائياً في النسب الأيوبي حتى المعاصرين منهم، فمنهم من قال بأنهم كرد، ومن قال أنهم عرب أمويون، ومن قال أنهم عرب ينتسبون إلى علي بن أحمد المري، ولكن لم يثبت بأن أحداً من الأيوبيين نسب نفسه إلى الأكراد فمنهم من أيد الرأي الثاني وبعضهم أيد الرأي الثالث وقد نفوا جميعهم الرأي الأول. (جمال الدين، ٢٠١٥: ٢٩٤) يرجع نسب الأيوبيين إلى أيوب بن شاذي بن مروان من أهل مدينة دوين في أرمينية، وقد اختلف المؤرخون في نسب العائلة الأيوبية حيث أورد ابن الأثير في تاريخه أن أيوب بن شاذي بن مروان يرجع إلى الأكراد الروادية وهم فخذ من الهذبانبة، ويذكر أحمد بن خلكان ما نصه: «قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين، إن على باب دوين قرية يُقال لها "أجدانقان" وجميع أهلها أكراد روادية، وكان شاذي قد أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شاذي بها وعلى قبره قبة داخل البلد»، بينما يرفض بعض ملوك الأيوبيين هذا النسب وقالوا: «إنما نحن عرب، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم. الأيوبيون أنفسهم اختلفوا في نسبهم فالملك المعز إسماعيل الأيوبي صاحب اليمن أرجع نسب بني أيوب إلى بني أمية، وأن نسبهم يرجع إلى أيوب بن شادي (أو شاذي) بن مروان بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وحين بلغ ذلك الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب قال: «كذب إسماعيل ما نحن من بني أمية أصلاً»، أما الأيوبيون ملوك دمشق فقد أثبتوا نسبهم إلى بني مرة بن عوف من بطون غطفان وقد أحضر هذا النسب على المعظم عيسى بن أحمد صاحب دمشق وأسمعه ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود. (الحنبلي، ١٩٩٢: ٨٢) ويشرح الحسن بن داود الأيوبي عن نسبه في كتابه "الفوائد الجليلة في الفرائض الناصرية" زعمه وأكد أنهم ليسوا أكراداً بل هم أحفاد أكراد. إليهم وينسب إليهم. قال: "لم يعترف بهذا النسب أحد من مشايخ بيتنا الذين لقيتهم قط." كما أقر الحسن بن داود في كتابه صحة شجرة الأنساب التي جمعها حسن بن غالب الجنس، والتي يمكن تتبع نسب العائلة فيها. الرجوع إلى أيوب بن شقي بن مروان بن أبي علي محمد بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد د بن أبي علي بن عبد العزيز بن حبه بن الحسين بن الحارث بن السن بن عامر بن ملا بن عوف بن أسامة

بن بيحس بن حارث بن عوف بن أبي حريصة بن ملا بن نشابة بن قايد بن ملا بن عوف بن لؤي بن غالب بن فخر بن مالك بن بن قريش. (جمال الدين، ٢٠١٥: ٢٩٧)

٢. تاريخ الدولة الأيوبية. وتشير المعطيات التاريخية إلى أن شادي بن مروان كان له ولدان، الأول: الملك أقدار نجم الدين أبي فضل أيوب أبو جميع الملوك، والثاني: الملك منصور الأسد أبي حارث الشركو، واتصاله بالملوك. الحاكم السلجوقي المجاهد على العراق في عهد السلطان السلجوقي مسعود بن مالك شاه الدين بهروز. ولذلك قطع علاقاته مع قلعة تكريت الواقعة بين بغداد والموصل. وهي مدينة كردية وسكانها أكراد. بعد وفاة شادي، ورث ابنه نجم الدين أيوب حكم قلعة تكريت ومنح لقب أمير الموصل وحلب عماد الدين زكي فرصة للخدمة. في ذلك الوقت هُزم Zengji في الحرب. وحارب الخلافة العباسية سنة ٥٢٦هـ، أي ١١٣٢م، بتوفيق من الله، ثم فر بجيشه للاحتماء بمدينة تكريت. وإلى نجم الدين أيوب أرجو احترامهم وتوفير المأوى لهم. وحدث أن تنكر مجاهد الدين بهروز بزني نجم الدين أيوب، وتعددت أسباب هذا التنكر، وكانت النتيجة أن أرسل بهروز أحداً إليه وأمره بتسليم القلعة لعامل آخر ورحل معه. عائلته من تكريت. نجم الدين يغادر قلعة تكريت مع أخيه أسد الدين إلى الموصل. وقد خدمهم عماد الدين زكي بشكل جيد، وعاملهم باحترام كبير، ومنحهم إقطاعات كبيرة. وكان ذلك سنة ٥٣٢ هجرية، الموافق ١١٣٨ م، ويقال أنه في نفس الليلة التي خرج فيها نجم الدين أيوب من قلعة تكريت، أنجب يوسف (صلاح الدين) الأيوبي، ومنه أن لقد كان ولدًا. وانضم نجم الدين وشقيقه أسد الدين شيركوه إلى الجيش تخليداً لذكرى عماد الدين. وظلوا مواليين لعماد الدين وحققوا انتصارات كثيرة، مما دفع عماد الدين إلى تعيين نجم الدين أيوب محافظاً على بعلبك. استولى عليها سنة ١١٣٩ هـ (٥٣٢ هـ). (زبيدة، ١٩٦٨: ١٥٥) بعد مقتل عماد الدين زكي انقسم ملكه بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب، فاستغل ذلك صاحب دمشق مجيد الدين أبق بن جمال الدين بن تاج الملوك، فحاول استرجاع بعلبك، فسلمه نجم الدين أيوب مقابل تعهده بإعطائه إقطاعاً جليلاً، ثم نزل دمشق وتسلم الإقطاع وهو عبارة عن عشرة قرى بجوار دمشق، بالإضافة لدار يسكن بها في دمشق، ثم أصبح لنجم الدين مركز مرموق في دمشق حتى أصبح قائداً لقواتها، واستمر يشغل هذا المنصب حتى استولى نور الدين على دمشق عام ٥٤٩ هـ الموافق ١١٥٤ م. أما أسد الدين شيركوه فقد بقي في خدمة نور الدين محمود بحلب، حتى أصبح قائداً لقوات حلب، ثم قام نور الدين بتسيير جيش بقيادة شيركوه للاستيلاء على دمشق عام ٥٤٧ هـ الموافق ١١٥٤ م، فوقف نجم الدين أيوب على رأس جيش حاكم دمشق مجيد الدين أبق. قام نور الدين محمود بالطلب من شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين وحثه على المساعدة، فطلب نجم الدين الحصول على المزيد من الإقطاعات في دمشق، فوعد نور الدين بتنفيذ ما طلب، واستمرت المفاوضات ستة أيام انتهت بتسليم دمشق، فعين نجم الدين حاكماً على دمشق. (محاسيس، ٢٠١١: ٣٢٢) كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقرّاً للدولة الفاطمية، ولم يكن للخليفة الفاطمي في ذلك الوقت سوى الدعاء له على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكانت هذه الفترة من أسوأ الفترات السياسية في تاريخ مصر الإسلامي، فقد أصبح الخليفة الفاطمي يشارك في مؤامرات و دسائس ضد وزرائه للتخلص منهم وذلك لضعفه وعدم قدرته على عزلهم بنفسه، فوجد أن كل طرف كان يتآمر ضد كل الأطراف، ولا يبالي أي طرف من أن يتقوى بالصلبيين ضد منافسه، مما أدى إلى تحريك أطماع الصليبيين في الإستيلاء على مصر. فعندما فشل الصليبيون على الجهة الشمالية (الشام)، اتجهوا صوب الجنوب (مصر)، واستغل الملك الصليبي بالدوين الثالث حالة مصر الضعيفة، وكشر عن أنيابه مهدداً بغزو الديار المصرية، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير ابن رزيك باسم الخليفة الفاطمي العاضد بجزية سنوية مقدارها مئة وستين ألف دينار، لما مات بلدوين الثالث تولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أمالريك الأول بدون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من الجزية، وكان تولي أمالريك حكم بيت المقدس بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر، حيث أدرك أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماة وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين في شمال بلاد الشام، فأصبح الطريق مفتوحاً أمامهم لمصر. (العفاني، ١٩٩٧: ٣١) في هذه الفترة تحركت رغبات نور الدين محمود في ضم مصر إلى الشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين، وكان نور الدين قد نجح في توحيد معظم مدن وإمارات الشام تحت إمرته، هذا بالإضافة لتلقيه العهد من الخليفة العباسي عام ٥٤٩ هـ بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر. كان الوزير طلائع بن زريك الأرمني هو الحاكم الفعلي لمصر زمن الخليفة الفاطمي الفائز بدين الله، ولكنه قتل وابنه فحل محله في الوزارة شارو الذي كان حاكماً للصعيد، ظهر في تلك الفترة ضرغام أبو الأشبال أمير فرقة من الجند المغاربة تخدم في مصر كمنافس فعلي للوزير شاور على كرسي الوزارة زمن الخليفة العاضد لدين الله. استطاع ضرغام خلع شاور من وزارة مصر بمساعدة الخليفة الفاطمي، فوجد أمالريك الفرصة سانحةً أمامه ليتخذ من مسألة الجزية ذريعة لهجوم يشنه على الحدود المصرية، ثم عبر برزخ السويس سنة ٥٥٨ هـ الموافق ١١٦٣ م ووصل إلى مصب دمياط، فتصدى له ضرغام،

وقطع بعض جسور النيل، وشكلت مياه الفيضانات وأحوال الدلتا عائقًا أمام أمالريك وجعله يتراجع إلى فلسطين. ما كان من شاور إلا أن هرب إلى الشام واستجد بنور الدين محمود ليعيد إليه الوزارة، ووعده بثلاث خراج إيراد مصر، وأن يمنح جنده إقطاعات يقيمون فيها في مصر. بعد فترة من التردد وافق نور الدين على مساعدة شاور لاستعادة الوزارة في مصر شريطة أن يعترف شاور بسيادة نور الدين على مصر، وكان نور الدين يرغب في إعادة مصر إلى المذهب السني وتوحيد مصر والشام ضد الصليبيين. أرسل نور الدين قائده أسد الدين شيركوه على رأس جيش إلى مصر، واصطحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان في الخامسة والعشرين من عمره آنذاك، لما علم ضرغام بأنباء شاور ونور الدين أرسل يستجد بالصليبيين، فلم يتردد أمالريك بمساندته بعد أن تعهد ضرغام له أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين مقابل مساعدته. (شاكور، ١٩٩٨: ٤٢١) تقابل جيش شيركوه وجيش ضرغام عند القاهرة، واستطاع شيركوه أن يهزم قوات ضرغام ويقتله ويعيد شاور إلى الوزارة، و لكن شاور نكث بعهده ورفض الاعتراف بولائه لنور الدين محمود، وطلب من شيركوه أن يعود إلى الشام، ولكن شيركوه توجه بجيشه إلى مدينة بلبيس في دلتا مصر وسيطر عليها وتحصن بها ضد شاور. أرسل شاور إلي أمالريك ملك بيت المقدس الصليبي ليساعده في التخلص من أسد الدين شيركوه، وكان سقوط عسقلان في غزة بوابة مصر الشرقية في يد الصليبيين قد أغرى أمالريك ملك بيت المقدس بالاستيلاء على مصر لتصبح أحد الممالك الصليبية، فوافق أمالريك وسار بجيش إلى مصر وانضم لقوات شاور وتقدم الاثنان لحصار مدينة بلبيس التي كان شاور معسكرًا بها، وانضمت إليه بعض القوات من عرب كنانة بالشرقية، واستمر حصار شاور والفرنج لشيركوه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر رمضان إلى ذي الحجة، وفي النهاية قبل شيركوه الخروج من مصر مقابل خروج الصليبيين أيضًا. لكن شيركوه الذي رأى ضعف مصر وهوان الخلافة الفاطمية، عاد يلح علي نور الدين ليرسل حملة أخرى إلى مصر، فوافق نور الدين، وبعد سنتين أي في عام ٥٦٢ هـ الموافق ١١٦٧م، أرسل نور الدين جيشًا آخر إلى مصر بقيادة شيركوه ومعه صلاح الدين مرة أخرى. استجد شاور أمالريك ملك بيت المقدس، الذي خرج على رأس جيش من مملكته، ولكن شيركوه كان الأسرع ووصل إلى القاهرة قبل أن يعترضه جيش أمالريك، أقام شيركوه معسكره في الجزيرة، بينما سار أمالريك عن طريق فاقوس وبلبيس حتى وصل إلى مكان بين القاهرة والفسطاط، حيث خرج شاور لاستقباله، وتم عقد معاهدة بين الصليبيين وشاور، أقرها الخليفة الطفل العاضد يتقاضى بموجبها أمالريك مبلغًا كبيرًا من المال يقدر بحوالي مئتي ألف دينار. هاجم شاور والجيش الصليبي قوات شيركوه الذي تقهقر إلى موضع قريب من مدينة المنيا الحالية، ولكن القوات الصليبية لحقت به هناك وألحقت الهزيمة بالجيش الصليبي، وعرفت هذه المعركة باسم معركة البابين، بعد ذلك سار شيركوه صوب الفيوم ومنها إلى الإسكندرية، لكن قوات أمالريك وبعض الأساطيل المعاونة للصليبيين فرضت حصارًا بريًا وبحريًا على الإسكندرية استطاع شيركوه أن ينسل بجيشه خارج الإسكندرية وترك حامية مكونة من ألف رجل يقودها صلاح الدين الأيوبي لتواجه حصار جيش أمالريك وشاور، دام حصار الإسكندرية والحامية أربعة أشهر واضطر شيركوه أن يدخل في مفاوضات مع أمالريك لفك الحصار، وتم الاتفاق على أن ينسحب شيركوه بجيشه من مصر وأن تدفع ضرائب تبلغ مئة ألف دينار من مصر لملك بيت المقدس في مقابل جلاء القوات الصليبية عن مصر. (العارف، ٢٠٠٥: ١٢٦) سار أمالريك بجيشه إلى مصر عام ١١٦٨م بدعوى أن شاور لم يدفع له الضرائب المتفق عليها، وهزم الجيش الفاطمي بقيادة شاور في بلبيس وسار إلى القاهرة، استجد شاور بنور الدين محمود لينقذه من الصليبيين، فقرر نور الدين إرسال حملة ثالثة بقيادة شيركوه وصلاح الدين. عندما سار جيش الصليبيين بقيادة أمالريك لاعتراض جيش شيركوه، استطاع شيركوه بقواته أن يفلت منهم وأن يدخل القاهرة في عام ٥٦٤ هـ الموافق ٦ من ديسمبر ١١٦٨م بدون مقاومة، فقام أمالريك بسحب جيشه من مصر وعاد إلى بيت المقدس. أصبح شيركوه الحاكم الحقيقي لمصر، ولكنه لم يعزل الخليفة الفاطمي، فقد كان الخليفة الفاطمي مريضًا مرضًا لا يرجى شفاؤه، فأثر شيركوه أن يتركه يموت بسلام، بينما قام صلاح الدين بالقبض على الوزير شاور على مقربة من قبر الإمام الشافعي بالقاهرة، ولما بلغ الخليفة الفاطمي العاضد ذلك طلب منه إرسال رأسه فقتله وأرسل رأسه إليه. بعد تعيينه بشهرين وزيرًا على مصر توفي أسد الدين شيركوه، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على وزارة مصر في ٢٥ جمادي الآخر ٥٦٤ هـ الموافق ٢٦ مارس عام ١١٦٩م، وكان عمر صلاح الدين وقتها لا يزيد عن اثنين و ثلاثين عامًا، مع أن صلاح الدين اعتلى كرسي الوزارة الفاطمية، إلا أن الفاطميين اختاروه لهذا المنصب بسبب حداثة سنة وما ظنوه من قصور خبرته السياسية، وكان العاضد ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته مستضعفًا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. (الشيخ، ١٩٩٤: ١٧)

٣. الشخصيات البارزة في الدولة الأيوبية. سلاطين الدولة الأيوبية هم حكام إحدى الدول الإسلامية التي نشأت تحت مظلة التبعية الاسمية للخلافة العباسية. نشأت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي، وذلك في ظل اضمحلال دولة الخلافة الفاطمية وانتهاء وجودها بعد وفاة الخليفة العاضد لدين الله. حكم صلاح الدين في بداية ظهوره كمدير لأمر عمه وزير الخليفة الفاطمي أسد الدين شيركوه والذي كان في نفس الوقت ممثلاً للملك نور الدين محمود بن زنكي حاكم الشام الذي أرسل شيركوه على رأس قواته لإنقاذ مصر من غزو الفرنج بطلب من الخليفة. (بيومي، ١٩٥٢: ٢٥٤) بعد موت شيركوه خلفه صلاح الدين في منصب وزير الخليفة الفاطمي وممثل نور الدين ولقب بالملك الناصر، ليصبح بعد وفاة الخليفة العاضد - آخر خلفاء الفاطميين - هو الحاكم الأوحده لمصر ونائباً لنور الدين عليها ولو اسماً، حيث كانت السلطة الفعلية في يد صلاح الدين آخر وزراء الفاطميين والذي أعاد لمصر التبعية للخلافة العباسية، وأعاد الخطبة باسم الخليفة العباسي ومن بعده لنور الدين ثم صار يخطب باسمه بعدهما، وأعاد كذلك المد السني إلى مصر الذي انحسر في ظل حكم الدولة الفاطمية الشيعية. وتمكن من تقوية مركزه في مصر، فاستمال قلوب المصريين عن طريق بذل المال، وأخضع ممالك شيركوه وسيطر على الجند بالإحسان إليهم، قوى علاقته الحذرة بنور الدين في دمشق الذي أمده بالمساعدات العسكرية، إلا أنه ما لبث أن دب الخلاف والوحشة بينهما بعد أن اتبع صلاح الدين سياسته الانفصالية عن الدولة الزنكية، فقرر نور الدين غزو مصر إخضاع صلاح الدين إلا أن الموت عاجله سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م قبل أن يحقق غرضه، فترك بذلك الساحة خالية أمام صلاح الدين ليتبوأ زعامة المسلمين، فضم بلاد المغرب الأدنى واليمن وبلاد النوبة. (الصلابي، ٢٠٠٦: ١٥٢) ونظراً لاحتلال المغول للعراق والشام قام سيف الدين قطز بعزل المنصور علي واعتلى سدة الحكم، وعندما تقدم المغول نحو فلسطين، تحرك الجيش المملوكي نجاه الشام، وجرت المعركة بين المماليك والمغول عند عين جالوت، وانتصر فيها المماليك، فتقدم قطز نحو بلاد الشام، ودخل دمشق، وكافأ من ناصرته من الأمراء الأيوبيين بأن أعادهم إلى إماراتهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة، فأقر الأشرف موسى على حمص والرحبة وتدمر، كما أقر المنصور الثاني صاحب حماة على إمارته، أما السعيد حسن صاحب بانياس الذي تحالف مع المغول فقد قتله قطز. لما تولى ركن الدين بيبرس الحكم خشي قيام ثورة ضده في بلاد الشام من جانب بقايا الأيوبيين، وخشي من طموحات المغيبي عمر صاحب الكرك، فعزم على القضاء عليه، وأعد حملة عسكرية من أجل هذه الغاية، لما علم المغيبي بنوايا بيبرس كتب إلى الخليفة العباسي في القاهرة يشفع له، فكتب الخليفة إلى ركن الدين كتاب ستنشعه في المغيبي، فأبقاه بيبرس على الكرك. لكن المغيبي استمر في عدائه للمماليك فكتب إلى هولاءكو في فارس يحثه على مهاجمة الشام، لما علم بيبرس بذلك تحايل على المغيبي عمر حتى أحضره إلى معسكره في بيسان بفلسطين واعتقله، وعقد مجلساً قضائياً عرض فيه الكتب المتبادلة بينه وبين هولاءكو، كما شهد الرسل الذين حملوا الكتب بذلك، فحصل بيبرس على فتوى تجيز قتله، فقتله عام ٦٦١ هـ الموافق ١٢٦٣م، وضم بيبرس أملاكه، وبذلك تخلص من آخر الأمراء الأيوبيين المناوئين له. (الريحاوي، ٢٠١٣: ٦٤)
٤. أبرز إنجازات الدولة الأيوبية. يعتبر صلاح الدين الأيوبي شخصية تاريخية عظيمة وملهمة للكثيرين حول العالم، ولاسيما في العالم العربي والإسلامي. فقد كان صلاح الدين زعيماً عسكرياً وسياسياً فذاً في القرن الثاني عشر الميلادي. وترك بصمة لا تنسى في التاريخ بفضل إنجازاته العديدة والمذهلة ومن أبرز إنجازات صلاح الدين الأيوبي ما يلي: (الجميل، ١٩٨٨: ١٧٠)
- أ. **توحيد المسلمين تحت رعاية واحدة:** من أبرز إنجازات صلاح الدين الأيوبي أنه تمكن من توحيد عدد كبير من الدول الإسلامية تحت رعاية واحدة، ومن بين هذه الدول هي مصر وبلاد الشام، حيث ساعدت هذه الوحدة في تحقيق انتصارات عديدة في حروبه ضد الصليبيين.
- ب. **القضاء على الفتن والصراعات:** من أهم إنجازات صلاح الدين الأيوبي هي القضاء على الفتن الداخلية والخارجية والصراعات السياسية والدينية حيث كانت الدولة في حالة من الفوضى والتشرذم ومع وصوله إلى الحكم، عمل على تمكن من توحيد الصفوف وتقوية الدولة وتحقيق الاستقرار السياسي وتعزيز قوة الدولة وإرساء مؤسساتها.
- ت. **إعادة مذهب أهل السنة والجماعة إلى الواجهة:** من أبرز إنجازات صلاح الدين الأيوبي أنه قام بتأسيس مدرستين هامتين وهما المدرسة الناصرية والكاملية بهدف إعادة مذهب أهل السنة والجماعة إلى الواجهة وتعزيزه ونشره في جميع أنحاء العالم الإسلامي وكان لهذه المدارس أثر كبير في تحويل الناس لمذهب أهل السنة والجماعة، كما جذبت الكثير من الطلاب والعلماء الذين كانوا يرغبون في دراسة هذا المذهب.
- ث. **إستغلال الثروات في تمويل فتوحاته:** قام صلاح الدين الأيوبي باستغلال ثروات مصر لتمويل حملته في غزو سوريا، حيث كانت مصر الراعي الأول له في ذلك الوقت. وعندما نجح في فتح سوريا، استعاد صلاح الدين الأيوبي من الثروات الوفيرة التي حصل عليها هناك، وقاد

حملة ضد شمال بلاد ما بين النهرين، المنطقة الواقعة بين بغداد والخليج العربي، حيث استخدم أموالها لتمويل حملته ضد الولايات الصليبية التي كانت متمركزة على طول الساحل الشرقي.

ج. **تثبيت حكمه:** عندما وصل صلاح الدين الأيوبي إلى بيت المقدس في عمر السابعة والخمسين وأقام فيه، كانت المنطقة تعاني من الفوضى والاضطرابات السياسية والإدارية. ولكنه بفضل خبرته الواسعة وحكمته السياسية، استطاع أن ينظم الشؤون الإدارية لإقليم فلسطين. وهو ما أسهم بشكل كبير في تقوية سلطته وإثبات قوته العسكرية في المنطقة. ورغم انشغاله بتنظيم الإدارة العامة، إلا أنه كان يمضي معظم وقته في الصيد، ومناقشة العلماء والمفتين في المسائل الدينية المختلفة.

٥. **الدولة الأيوبية قبل صلاح الدين الأيوبي.** ما إن تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم في مصر حتى بدأت الوحشة بينه وبين نور الدين محمود، اعتقد نور الدين أن صلاح الدين يعمل للاستقلال بحكم مصر دونه، ومما زاد في الأمر شكاً أن صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية بدأ في تثبيت أقدامه في مصر، فأخذ في إنشاء القلاع والتفكير ببناء سور حول المدن الأربعة التي تألفت منها مدينة الفسطاط، وعزز مقام أقاربه وأبناء عشيرته في الجيش والحكومة، وأزال رجالات الدولة ممن لم يكن يثق بهم، بالإضافة لاختلاف وجهات النظر السياسية بين الرجلين، فقد رأى نور الدين في بلاد الشام أنها بمنزلة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافية والواردات المادية التي تسد نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس وهو لم يناضل في ضمها إلا من أجل هذه الغاية، أما صلاح الدين فقد كان مقتنعاً نتيجة للصراع بين القوى الثلاث الإسلامية والصليبية والبيزنطية حول مصر بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن مركز النقل في العمليات العسكرية. (طقوش، ٢٠٠٨: ٥٠) قرر نور الدين مرتين الزحف إلى مصر وإخضاع مصر لحكمه. المرة الأولى كانت بعد احتلال الصليبيين لقلعة الشوبك، فأرسل صلاح الدين الأيوبي قوات للهجوم وعرقلة تدفق التجارة بين مصر ومصر. الشرق. وبعد حصار قصير الأمد، لم تتمكن الحامية الصليبية من الصمود والمقاومة، فأعطى صلاح الدين الأيوبي أهل القلعة فترة سماح مدتها عشرة أيام للاستسلام، لكن صلاح الدين سرعان ما احتل القلعة حتى علم بقلعة نور الدين. تعالوا لمساعدته، خشي صلاح الدين أن يعتقله نور الدين إذا رآه، فسارع بالتراجع إلى مصر واعتذر عن خلل الأوضاع في مصر واحتلال توازن مصر. ويخاف إذا ابتعد عنها. وانزعج نور الدين من تصرفات نائبه، ولم يقبل أعذاره التي رأى فيها دليلاً صارخاً على تهريبه، ورأى أن صلاح الدين انفصل عنه تماماً. فقرر الزحف إلى مصر والاستيلاء عليها، مما أخاف صلاح الدين، فعقد اجتماعاً مع أقاربه وبعض الخدم ليطالب مشورتهم. ما يجب القيام به؟ ونصح نجم الدين أيوب ابنه بالكتابة إلى نور صلاح الدين واتبع نصيحة والده وقدم لنور الدين هدايا ثمينة منها حيوانات نادرة وأحجار كريمة وأقمشة وصناعات وعطور. تلقى نور الدين هدية صلاح الدين الأيوبي وكتاب الولاء والطاعة، ولم يعد لدى الزنكي أي حجج لتبرير حربه على مصر. آخر: أراد نور الدين محاكمة صلاح الدين، فكتب إليه سنة ٥٦٩هـ، أي ١١٧٣م، يطلب منه الخروج على الإفرنج الذين غزوا الكرك، على أن يسير إلى هناك أيضاً. - اقترب دين فكك الحصار عن المدينة ورجع إلى مصر. وجه الحقوقي عيسى الحيكاري اعتذاراً لنور الدين لأنه اضطر للعودة بسبب مرض والده وخوفه من الموت. ومن جانبه، وبسبب تعرضه لضغوط الصراخ، توفي قبل وصول صلاح الدين إلى القاهرة. لم يقتنع نور الدين زنكي باعتذار صلاح الدين، بل اقتنع هذه المرة بأن نائبه هو الذي خانته وجرمه من طاعته، وكان غضبه يتزايد يوماً بعد يوم، وينفذ صبره، وتوعد بمعاقبته. أشبع انتقام. وقرر فتح مصر نهائياً واتخاذ إجراءات حاسمة ضد صلاح الدين، لكن القدر كان مع صلاح الدين. وكاد نور الدين أن يستعد لشن حملة على مصر حتى وفاته سنة ٥٦٩هـ، الموافق سنة ١١٧٤م، التي كانت بداية الدولة الأيوبية. (الزبيدي، ١٩٩٦: ٣٦)

٦. **الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي**

ما إن تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم في مصر حتى بدأت الوحشة بينه وبين نور الدين محمود، اعتقد نور الدين أن صلاح الدين يعمل للاستقلال بحكم مصر دونه، ومما زاد في الأمر شكاً أن صلاح الدين بعد سقوط الدولة الفاطمية بدأ في تثبيت أقدامه في مصر، فأخذ في إنشاء القلاع والتفكير ببناء سور حول المدن الأربعة التي تألفت منها مدينة الفسطاط، وعزز مقام أقاربه وأبناء عشيرته في الجيش والحكومة، وأزال رجالات الدولة ممن لم يكن يثق بهم، بالإضافة لاختلاف وجهات النظر السياسية بين الرجلين، فقد رأى نور الدين في بلاد الشام أنها بمنزلة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافية والواردات المادية التي تسد نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس وهو لم يناضل في ضمها إلا من أجل هذه الغاية، أما صلاح الدين فقد كان مقتنعاً نتيجة للصراع بين القوى الثلاث الإسلامية والصليبية والبيزنطية حول مصر بأن هذا البلد يشكل في الوقت الراهن مركز النقل في العمليات

العسكرية. (سيد، ٢٠٠٢: ٣٩١) قرر نور الدين المسير إلى مصر وإخضاعها تحت حكمه في مناسبتين، الأولى: لما خرج صلاح الدين لمهاجمة حصن الشوبك بعد استيلاء الصليبيين عليه، وعرقلة سير التجارة بين مصر والشام، وبعد حصار لم يدم طويلاً، لم تستطع الحامية الصليبية في الثبات والمقاومة، فأعطى صلاح الدين أهل الحصن مهلة من عشرة أيام للتسليم، لكن صلاح الدين لم يلبث أن ينال من الحصن حتى علم بسير نور الدين إليه لمساعدته، وعندئذ خشي صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه، فأسرع بالانسحاب والعودة إلى مصر، معتذراً باختلال الأحوال في مصر وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها. استاء نور الدين من مسلك نائبه وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره، ورأى فيه دليلاً صارخاً على تهربه منه، وظن أن صلاح الدين قد انفصل نهائياً عنه، فقرر الزحف إلى مصر والاستيلاء عليها، الأمر الذي أخاف صلاح الدين، فعقد اجتماعاً مع أقاربه وبعض خاصته واستشارهم فيما ينبغي أن يفعل، أشار نجم الدين أيوب على ولده أن يكتب إلى نور الدين بأنه خاضع له ومنفذ لأمره، فعمل صلاح الدين بنصيحة أبيه، وأرسل إلى نور الدين هدايا ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر. استلم نور الدين هدية صلاح الدين ومعها كتاب الولاء والطاعة، ولم يعد هناك من حجة يبرر بها الزنكي حملته على مصر. الأخرى: أراد نور الدين تجربة صلاح الدين فكتب إليه عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٣م أن يخرج لغزو الفرنجة في الكرك، على أن يسير هو أيضاً إلى هناك، فأيهما سبق صاحبه أقام إلى أن يوافيه الآخر، ذهب صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها، ولكنه ما كاد يعلم باقتراب نور الدين حتى رفع الحصار عن المدينة وعاد إلى مصر، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت، والذي كان يعاني سكرات النزاع، وقد توفي قبل وصول صلاح الدين إلى القاهرة. لم يقتنع نور الدين زنكي باعتذار صلاح الدين وأيقن هذه المرة أن نائبه قد خرج عليه وخلع طاعته، فزاد غضبه ونفذ صبره، وأقسم لينتقم منه أشنع انتقام، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم ضد صلاح الدين، لكن القدر كان مع صلاح الدين، فما كاد نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر حتى وافته المنية عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٤، وفي هذا التاريخ كانت بداية الدولة الأيوبية. (العيني، ٢٠١٠: ٢٥) بعد أن زال خطر نور الدين، واجهت صلاح الدين عدد من المؤامرات منها: رفض الجماعات الشيعية المتواجدة في مصر الخضوع للحاكم الجديد، فقاموا عام ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧٤م بمؤامرة للانقلاب على حكم صلاح الدين، وكتبوا شيخ الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وطلبوا منه أن يبيت له مكيدة وحيلة، واتصلوا بويليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم الإسكندرية، بالإضافة لتسويقهم مع عموري الأول ملك بيت المقدس. لكنهم أخطأوا بإشراكهم في سرهم الفقيه زين الدين علي بن أبي النجا الذي قام بإطلاع صلاح الدين على المؤامرة، فقام صلاح الدين بالقبض على قادة المؤامرة وتصفيتهم، لكن ملك صقلية واصل السير إلى الإسكندرية وحاول اقتحامها، وانتهت المعركة بين الطرفين بانسحاب ملك صقلية. كما واجه صلاح الدين خطر الجيش الفاطمي المؤلف من عدد كبير من الفرسان البيض وحوالي ثلاثين ألفاً من المشاة السود، كان معظم الفرسان البيض من الأرمن الذين خدموا في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي، فكثر عددهم وزادت شوكتهم منذ ذلك الحين، فبدأ صلاح الدين في بناء جيش خاص به على حساب الجيش الفاطمي، وذلك بإخراج طوائف السودان والأرمن من القاهرة، وعندما اندلعت حركة التمرد التي أشعلها الجنود السود بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كان لدى صلاح الدين من القوات النظامية ما يكفي للقضاء على معظم قوات التمرد وطردهم فولهم إلى الصعيد، أما الفرسان البيض في الجيش الفاطمي فلم يتحركوا للمشاركة في التمرد، وصاروا فيما بعد جزءاً مهماً من جيش صلاح الدين. (شاندر، ١٩٩٣: ١١٥) عندما توفي نور الدين محمود كان وريثه في الحكم ابنه الملك الصالح اسماعيل الذي كان عمره ١١ سنة، ولصغر سنه كثر من يطالب بولايته فبدأت المنازعات في الشام، تطلع لهذه الوصاية عواصم كبرى في العالم الإسلامي آنذاك، فالموصل وحكامها الأتابكة تحت زعامة الملك سيف الدين غازي الثاني الذي سارع لضم البلاد المجاورة له وأعلن نفسه أميراً على الجزيرة، كما تطلع لضم حلب ودمشق التي كان بها مقدم الجيش شمس الدين محمد الذي اضطر لمهادنة الصليبيين ودفع جزية مالية لهم حتى يتقي هجومهم، وأرسل بطلب المساعدة من صلاح الدين، وحلب التي كان أكبر القادة فيها شمس الدين علي بن الداية، الذي استدعى الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب، لكن قائداً آخر هو سعد الدين كمشتكين قبض على ابن الداية واستبد بأمر الملك الصالح. تحين صلاح الدين الفرصة حتى قرر الخروج إلى الشام عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٤، بعد أن ستغاث به قائد الحامية شمس الدين محمد بسبب أطماع الفرنج في دمشق وأعمالها مثل بانياس، فوصل الشام واستولى عليها من غير مدافع وبلا ضربة ولا طعنة. ثم غادر دمشق متوجهاً لحلب، فاضرع في طريقه حمص وحماة، أما حلب فقد استعصت على صلاح الدين حيث لجأ أمراء حلب إلى شيخ الجبل زعيم الحشاشين لاغتيال صلاح الدين وأمدوهم بالأموال التي تغريهم على ذلك، فوثب عليه جماعة منهم أثناء نزوله حلب ولكنه نجا من المحاولة، ثم قام حاكمها كمشتكين بالاستجداد بريمووند الثالث أمير

طرابلس، الذي كان يدرك خطورة سقوط حلب بيد صلاح الدين، فقرر مفاوضته، وأرسل إليه يرغبه بالصلح ويلوح له أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدًا واحدة، لكن صلاح الدين رفض الصلح مما دفع بريموند للإغارة على حمص التي كان صلاح الدين قد ضمها إلى دولته، فاضطر لترك حصار حلب لنجدة حمص، فنتج عن ذلك فك الحصار عن حلب. اتجه صلاح الدين نحو بعلبك فدخلها بدون قتال. ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله رسولاً يشرح فيه سبب قيامه بحملته على الشام، ويقول أن مجيئه للشام مطلباً قومياً وليس شخصياً حيث قال: «والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة وجمع الأمة». ثم أعلن صلاح الدين نفسه ملكاً على مصر والشام بموافقة الخليفة العباسي في أواخر عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٥ م. (عاشور، ٢٠١٣: ٩٨) لم ينس صلاح الدين محاولات الحشاشين لاغتياله، فأغار عليهم في مناطقهم في جبل السماق ثم عاد إلى دمشق. حاول صلاح الدين استمالة الزنكيين ولكنه لم يفلح في مسعاه، فتعرض لخطر كبير من حكام حلب والموصل وحلفائهم الذين جمعوا قواتهم لمهاجمته، فسار بجيشه حتى لقيهم على مسافة قريبة من حلب فدارت وقعة بين الطرفين عام ٥٧٠ هـ الموافق ١١٧٦ انتهت بانتصاره، عاد صلاح الدين لحصار حلب فتجددت الاتفاقية بينه وبين أمراء حلب والموصل على مساعدة كل طرف للطرف الآخر إذا ما اقتضت الظروف، وفي تلك الأثناء جرت محاولة أخرى من جانب الحشاشين لاغتيال صلاح الدين، فلما صالح الحلبيين قصد بلاد الحشاشين فهاجم مصياف مقرهم الرئيسي عام ٥٧٢ هـ وحاصروهم، وقتل منهم أعداد كبيرة وهُدمت كثير من قلاعهم. رجع صلاح الدين لمصر بعد أن تزوج من أرملة نور الدين زنكي في دمشق، وفي مصر قضى نحو ست سنوات ينظم فيها الشؤون الداخلية، وانصب اهتمامه على بناء القلعة وأسوار القاهرة الكبيرة لتأمينها من أي هجوم محتمل من جانب الصليبيين. في عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١ م توفي الملك الصالح إسماعيل، وعلى الفور خرج صلاح الدين صوب حلب التي أعلن الخليفة العباسي أن حكمها من حقه، وعلم في الطريق أن حكام الموصل قد كاتبوا الفرنج وطلبوا منهم مهاجمة بلاد الشام ليشغلوا صلاح الدين، فعبّر نهر الفرات وحاصر الموصل إلا أنه مالبت أن انصرف منها. في عام ٥٨١ هـ الموافق ١١٨٥ م، اتجه صلاح الدين للموصل فحاصرها، وانتهى الحصار بإعلان الأمير عز الدين مسعود تبعيته لصلاح الدين. وبذلك تحققت لصلاح الدين الوحدة الإسلامية من الفرات إلى النيل. (عزام، ٢٠١٣: ١١٧) كانت شمالي أفريقيا مرتبطة عضوياً بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، حاول صلاح الدين في عام ٥٦٨ هـ الموافق ١١٧٣ م ضمها، حيث أرسل قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش وغلالم المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس باستثناء المهديّة وسفاس وقفصة وتونس. كرر قراقوش محاولة التوسع الأيوبي شمالي أفريقيا فضم أوجلة الواقعة جنوبي برقة عام ٥٧١ هـ الموافق ١١٧٥ م والدوحان وغدامس وبلاد هوارة وزوارة ولوتة ونفوسة عام ٥٧٧ هـ الموافق ١١٨١ م. كان ضم اليمن إلى مصر متصلاً في ذهن الأيوبيين بالقضاء على الدولة الفاطمية، فقد استأذن صلاح الدين نور الدين محمود في أن يسير أخاه توران شاه إلى اليمن لقصد عبد النبي بن المهدي صاحب زيد، أراد صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن يعد مفتاح بحر القلزم من ناحية الجنوب، وسيؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية، توجه توران شاه إلى اليمن فوصل زبيد عام ٥٦٩ هـ الموافق ١١٧٤ م وملكها وقتل عبد النبي بن مهدي، ثم ضم عدن وصنعاء وتعز وسائر اليمن. كانت النوبة مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة، ولما قامت الدولة الأيوبية أراد صلاح الدين فتح النوبة لحماية مصر من التهدي عليها من جهة الجنوب، أرسل صلاح الدين أخوه توران شاه عام ٥٦٨ هـ الموافق ١١٧٣ م إلى بلاد النوبة ففتح إبريم وقوص. تطلع صلاح الدين منذ استلامه مقاليد الحكم في تحصين مصر أما موجات الحملات الصليبية المتعددة، فحاول أن يحيط القاهرة والفسطاط بسور واحد حصين بعد أن تهدم أكثره، فعهد ببنائه لبهاء الدين قراقوش الخصي، فبدأ العمل سنة ٥٦٧ هـ الموافق ١١٧١ وانتهى البناء عام ٥٧١ هـ الموافق ١١٧٦، وكان السور مبنياً كله من الحجارة، يبدأ شماله عند قلعة المقس المطلة على النيل، ويظل يطوف بالقاهرة والفسطاط حتى ينتهي عن النيل جنوب الفسطاط، يقول المؤرخون أن محيط السور بلغ تسع وعشرين ألفاً وثلاثمئة وذرعا. ثم قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزاً للحكام وملجأ للناس عند الضرورة. (الصلاحي، ٢٠٠٨: ٣٥٦) وقد كان صلاح الدين يتحين الفرصة لتحرير بيت المقدس. ففي الجانب الصليبي كانت مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى تعاني من مشكلات داخلية عصية على الحل، فبذور الشك أصبحت متزايدة بين حاكم مملكة بيت المقدس بلدوين الرابع وبين بوهيند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس كما جاءت في وقت تعاني فيه مملكة بيت المقدس من مشاكل حول صحة بلدوين الرابع ومشكلة وراثته العرش، قرر البطريرك هيراكليو وأم بلدوين وأخته سيبيل أن يجعلوا الوصاية على العرش لغي دي لوزينيان زوج سيبيل، الذي تمكن من فرض سيطرته على مملكة بيت المقدس باستثناء بيت المقدس، لكن بلدوين ما لبث أن تشاجر مع لوزينيان وخلعه من الوصاية على عرش بيت المقدس، ونتيجة لذلك هاجم بلدوين يافا واستولى عليها، ولكن

لوزينيان صد هجومه عند عسقلان. على الصعيد الخارجي كانت علاقات صلاح الدين تتوثق مع المدن الإيطالية ومع حاكم الإمبراطور البيزنطية الكيسوس كومنين الثامن، بعد وفاة بلدوين الرابع، تم توقيع معاهدة بين الصليبيين والأيوبيين تنص على سريان هدنة بين الطرفين مدتها أربع سنوات، وتسلم الحكم بلدوين الخامس سنة ١١٨٥م، ولكنه توفي بعد ذلك في عام ١١٨٦م، لتدخل بعدها مملكة بيت المقدس في صراع على وراثة الحكم شارك فيه أمير طرابلس ريموند الثالث، فثارت شكوك حول وفاة بلدوين الخامس وهي وفاة طبيعية أم أن الأطراف الطامعة في تاج مملكة بيت المقدس كانت وراء هذه الوفاة حيث يشار على أنه مات مسموماً، ووصل الأمر إلى أن أصبح الصليبيون يشكلون معسكرين متعادين حول وراثة حكم مملكة بيت المقدس فريق يؤيد غي لوزينيان وحكمه للقدس، وفريق آخر معارض لهذا الحكم ويرأسه ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية، وبعد عدة تقلبات في الأحداث تولى لوزينيان عرش بيت المقدس. (حسين، ٢٠٠٢: ٦٨) في عام ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧ عاد أرناط إلى الاعتداء على قوافل المسلمين والاعتداء على الحجاج المتجهين نحو مكة، فأرسل صلاح الدين إلى نوابه وتابعيه في كافة أنحاء دولته يطلب منهم القدوم بجيوشهم لقتال الصليبيين، وانطلق على رأس قوة كبيرة لحماية قافلة من الحجاج العائدين من الحجاز، وبدأت الفرقة المصرية التي وصلت للانضمام لصلاح الدين بالإغارة على الكرك والشوبك، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق حيث تجمعت الجيوش القادمة من دمشق وحلب ومابين النهرين ومصر وديار بكر لتشن هجوماً على طبرية، وعند صفورية عام ١١٨٧م انتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً في معركة دارت بين الطرفين، حيث قضى المسلمون تماماً على القوة الصليبية التي اشتبكوا معها. تجمع الصليبيون أمام عكا في جيش يزيد عن عشرة آلاف مقاتل، في حين رصّ صلاح الدين قواته عند عشتار التي كانت تتألف من اثني عشر ألف فارس، وعدد مماثل من القوات غير النظامية، انطلقت قوات صلاح الدين إلى فلسطين حيث عسكرت على التلال المشرفة على بحيرة طبرية، واستولت على مدينة طبرية، عبر صلاح الدين بقواته نهر الأردن ثم عسكر عند كفر سبت، قام الملك جي لوزينيان بعقد مجلس حربي انتهى باعطاء أوامره بالتحرك صوب طبرية، حيث عسكر الصليبيون في صفورية بجيش ضخم يقارب جيش المسلمين. في يوم الجمعة تحرك الجيش الصليبي من بساتين صفورية باتجاه طبرية، حتى وصل للهضبة التي تعلوا حطين مباشرة، ولكن صلاح الدين كان قد استولى على موقع المياه في طبرية، وأمر باضرام النيران في الحشائش الموجودة في المنطقة. في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧م اشتبك الجيشان في حطين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وأسر الملك غي دي لوزينيان وأخاه أمالريك، أما أرناط فقد قتله صلاح الدين. (الصلاحي، ٢٠٠٨: ٣٧٢) فتح انتصار صلاح الدين في حطين أمامه الطريق لاسترداد المدن الساحلية الواقعة جنوبي طرابلس، فأسرع مستغلاً الموقف وذلك ليقطع الصلة بين الصليبيين وبلاد الشام وبين أوروبا، فاسترد عكا، الذي لم يفكر حاكمها جوسلين في شيء سوى سلامته، وعرض على صلاح الدين تسليم المدينة مقابل تأمين الأرواح والممتلكات، ويافا وقيسارية ويافا، بعد ذلك تحرك الجيش إلى الساحل اللبناني، وكان معظم الناجين من معركة حطين قد فروا إلى مدينة صور، التي كانت مدينة جيدة التحصين، وشن عليها صلاح الدين هجومه الأول ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، فواصل سيره نحو صيدا التي استسلمت له، ثم استسلمت بيروت وجبيل. توجه صلاح الدين إلى غزة، واقتحمها وهزم حاميتها، ثم استولى على عسقلان بعد ذلك، في هذا الوقت وصل سفراء أهالي بيت المقدس للتفاوض حول شروط استسلام القدس، لكن المفاوضات فشلت، فأقسم صلاح الدين أن يستولي عليها بالسيف. تولى القائد الفرنسي باليان قيادة جيش بيت المقدس، وقام بتجنيد كل فتى يفوق سنة السادسة عشر، في عام ٥٨٣ هـ الموافق ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس، وعسكر أمام المدينة، وبدأ هجوم المسلمين، بعد خمسة أيام من الهجوم غير صلاح الدين موقعه إلى جبل الزيتون المطل على القدس، وبعد حصار دام أياماً، اتفق صلاح الدين وبالبيان على تسليم المدينة وفق شروط تنص على: أن يدفع الصليبيون فدية عن أنفسهم بمعدل عشرة دنانير للرجال وخمسة دنانير عن كل امرأة ودينارين عن كل طفل، وأن يسمح للمسيحيين الشرقيين من أهل الشام واليونانيين بالبقاء في المدينة. دخل صلاح الدين القدس في ليلة المعراج يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، وبهذا سقطت مملكة بيت المقدس بيد صلاح الدين. (البيومي، ١٩٩٨: ١٢٣)

٧. **الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي.** تعرضت الدولة الأيوبية التي كانت تضم الشام وفلسطين ومصر إلي التقسيم بعد وفاة صلاح الدين نتيجة التنافس بين أفراد أسرته، فكانت مصر من نصيب ابن صلاح الدين عماد الدين أبي الفتح عثمان الذي لقب بالعزیز، ودمشق من نصيب ابنه الثاني الأفضل نور الدين علي، وحلب من نصيب ابنه الظاهر غازي غياث الدين، والكرك والشوبك من نصيب العادل أخو صلاح الدين، استقل أولاد عم صلاح الدين ببعض مدن الشام واليمن، فاحتفظ سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين باليمن وجزيرة العرب، وأخذ الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بعلبك وأعمالها، واستمر الملك منصور الأول محمد بن تقي الدين عمر في حكم

حماة. تنافس كل من العزيز والأفضل ابني صلاح الدين علي السيطرة علي بيت المقدس، انتهى هذا التنافس بالاتفاق علي ترتيب جديد لحكم الأسرة الأيوبية يقضي بأن: يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية، ويتخلى عن بيت المقدس وماجاورها للعزيز، ويتخلى الأفضل عن جبلة والاندقية لأخيه الظاهر غازي، ويعترف العزيز بسيادة الأفضل، في فترة النزاع الأيوبي علي السلطة استولى الصليبيون علي مدينة جبيل وقلعتها عام ٥٩٠ هـ الموافق ١١٩٤م، وخرج الملك الأفضل لاستردادها لكنه لم يستطع. ولّى العزيز الوزارة في مصر لعنه العادل الذي بدأ يثبت أقدامه في الحكم حتى أصبح صاحب السلطة الحقيقية، قام العادل والعزيز بالاستيلاء علي دمشق وتجريد الأفضل من إمارته، واتفق الأطراف الثلاثة علي أن يأخذ الأفضل سرخد، ويملك العادل دمشق وأواسط الشام، ويتولى الملك العزيز السلطنة وتبقى له مصر وبيت المقدس، استمرت الهدنة حتى توفي العزيز عام ٥٩٥ هـ الموافق ١٢٠٠م. بعد وفاة العزيز تولى ابنه ناصر الدين محمد حكم مصر، ولقب بالملك المنصور، وكان الأفضل وصياً علي ابن أخيه المنصور الذي كان لايزال صغيراً، ونازعه في الأمر عمه العادل، واتفق علي أن يحكم العادل مصر ويحكم الأفضل ديار بكر. بمجرد حصول العادل علي الوصاية قرر خلع السلطان الصغير وتولى حكم مصر منفرداً سنة ٥٩٦ هـ الموافق ١٢٠٠م، ثم قام بعد ذلك ببسط نفوذه علي الشام، وبذلك عادت دولة صلاح الدين تحت حكم سلطان واحد. لم تنقطع إغارات الصليبيين علي المدن التي تخضع تحت سيطرة المسلمين، فكان العادل يرسل بالمدد لأمرء المدن الإسلامية في الشام ليصدوا هجمات الصليبيين، وكان كثيراً ما يخرج بنفسه لقتال الصليبيين ويردهم إلي المهاندنة، ومنها حملة هنري السادس امبراطور ألمانيا، التي وصلت حملته عكا عام ٥٩٤ هـ الموافق ١١٩٧م، ودارت بين الصليبيين والأيوبيين معركة عند تل العجول قرب غزة انتهت بهزيمة الصليبيين، كما انتهت الحملة بموت هنري السادس. (الصلابي، ٢٠٠٩: ١٠١) كان البابا أنوسنت الثالث قد أعرب علناً عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، في عام ٦٠٠ هـ الموافق ١٢٠٣م وصلت سفن الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية بقيادة ألكسيوس ابن الإمبراطور إسحاق الثاني، واعتقد الصليبيون أن بيزنطة كلها سوف ترحب بهم، ولكنهم اكتشفوا أن جميع أبواب القسطنطينية أغلقت في وجوههم، وأن الجنود البيزنطيين مرابطين فوق أسوارها، وفشلت المحاولات الأولى التي قام بها الأسطول الصليبي لمهاجمة الأسوار، وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة في الأسوار، وفكر الكسيوس الثالث من الفرار مع ابنته ولجأ مدينة موزينو في تراقيا، فما كان من حاشية القصر إلا أنهم أخرجوا الإمبراطور المعزول إسحاق من السجن وأعادوه على عرشه وبذلك توقف القتال، وتم الاتفاق على تنصيب الكسيوس الصغير قسماً لأبيه في حكم الإمبراطورية وتسمى بعد ذلك الكسيوس الرابع. في عام ٦٠٢ هـ الموافق ١٢٠٤م وقعت ثورة في القصر الإمبراطوري، وتم عزل الكسيوس وألقي به في السجن حيث توفي ولحق به أبوه، تولى الحكم الكسيوس الخامس الذي وقف موقفاً مضاداً ضد الصليبيين، ومع هذا التطور اتجه الآخرون لمهاجمة القسطنطينية، وحل بالمدينة القتل والسلب والتدمير. ثم بدأت محاولة الحملة الصليبية السيطرة على بلاد الشام حيث أرسلت قوات قليلة من القسطنطينية، وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم هزيل ضد مدينة رشيد المصرية ومدينة فوة القريبة منها، عندما علم أمالريك الثاني ملك عكا بعدم قدوم الحملة الصليبية واستقرارها في بيزنطة، سعى أمالريك لعقد هدنة مع الملك العادل الذي رحب بعقد الهدنة، وتم عقد هدنة مدتها ست سنوات في أواخر سنة ١٢٠٤م. (ابو حديد، ١٩٢٧: ٧٩) في عام ٦١٤ هـ الموافق ١٢١٧م بدأت قوات الحملة الصليبية الخامسة في الوصول إلى عكا، وكانت القوات المجرية في طليعة الواصلين بقيادة الملك أندريه الثاني، ولحق به ليوبولد السادس دوق النمسا، ثم لحق بهما هيو ملك قبرص، وأرسل ليوبولد فور وصوله عكا سفارة إلى بوهيموند الرابع، وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين، وتجمع لدى الصليبيين أكبر جيش لهم منذ الحملة الصليبية الثالثة، خرج بعدها الصليبيون من عكا ليشنوا هجوماً مباغتاً ضد دمشق في جيش ضخم، عندما علم العادل بتحركهم خرج من مصر إلى فلسطين وتابع طريقه إلى نابلس آملاً أن يقطع الطريق عليهم عند عين جالوت، لما علم الصليبيون بقدمه غيروا خطتهم واتجهوا نحوه، وساروا إلى مدينة نيسان في الوقت الذي سار فيه العادل نحوها بعد أن تحصن بها، نتيجة لتفوق الصليبيين تجنب العادل الاشتباك معهم، فواصلوا هجومهم على المدن الإسلامية وحاصروا بانياس ووصلوا إلى حوران، ثم عادوا إلى عكا. ظل الوضع هادئاً حتى عام ٦١٥ هـ الموافق ١٢١٨م حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا، وقرر مجلس الحرب الصليبي الذي اجتمع في عكا مهاجمة دمياط، وصل الصليبيون دمياط بقيادة الملك يوحنا دي بريان، فنزل أفرادها إلى البر، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة للمدينة، عندما علم الملك العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصفر، انتقل إلى عالقين بظاهر دمشق، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل، وطلب من ابنه المعظم عيسى والأشرف موسى أن يغيروا على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم ذلك عن دمياط. ظل الوضع متجمداً قرابة أربعة أشهر، نفذ خلالها الصليبيون محاولات عديدة لاقتحام برج السلسلة، انتهت بنجاح

الصليبيون في دخول برج السلسلة والاستيلاء عليه، حيث قاموا بإقامة برج على سفينتين أحكم ربطهما معاً بالحبال، وجرت تغطيته بالجلد والنحاس الأحمر لحمايته من النار، ووضعوا فوقه سلمًا متحركًا حتى أضحى كالقلعة العائمة. مات بعدها الملك العادل سنة ٦١٥ هـ الموافق ١٢١٨م أثناء وجوده في الشام ودفن في أحد المساجد بدمشق، وترك أبناءه الثلاثة يحكمون الدولة الأيوبية في مصر والشام، الكامل في مصر والمعظم عيسى في دمشق والأشرف موسى في حلب. (الحايك، ٢٠١١: ٢٥٩)

٨. نهاية الدولة الأيوبية استمرت الحملة الصليبية بعد وفاة الصالح أيوب، واستطاعت شجر الدر أن تخبيء نبأ وفاة السلطان، ودارت بين الأيوبيين والصليبيين معركة المنصورة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا من جهة، والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وفارس الدين أقطاي الجمدار وركن الدين بيبرس البندقداري من جهة أخرى، أسفرت المعركة عن هزيمة الصليبيين هزيمة كبرى. قامت شجر الدر باستدعاء توران شاه ابن الصالح أيوب ليكون السلطان الجديد بعد موت أبيه، جاء توران مسرعًا من حصن كيفا ومعه خاصة رجاله ومساعدوه، واستلم قيادة البلاد والجيش فور وصوله وأظهر مقدرة حربية، وبمساعدة المماليك وضع خطة عسكرية محكمة لإجبار الصليبيين على التسليم حيث أمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم أعاد تركيبها وإنزالها خلف خطوط الصليبيين مما أدى لوضع الصليبيين في كمشاة أدت لهزيمتهم وأسر ملكهم لويس التاسع. على الرغم من هذا الانتصار العسكري الكبير على الصليبيين إلا إن توران شاه كان يمثل تجسيدًا حقيقيًا لانهايار الأيوبيين الصغار، وبدلاً من أن يستغل الظروف الراهنة في توحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تمامًا، اتجه نحو أمراء المماليك وزوجة أبيه شجر الدر، وأخذ في التخطيط للقضاء عليهم. كان توران شاه كئيبيًا متكبرًا سريع الغضب، فأصدر عدة قرارات صادر بمقتضاها إقطاعات الأمراء وحدد عدة أسماء ووضعها على قائمة التصفية، ووصلت أخبار هذه القائمة للأمراء فقرروا التخلص منه. في صباح يوم ٢٧ محرم ٦٤٨ هـ الموافق ٢ مايو ١٢٥٠م كان السلطان توران في خيمته السلطانية فهجم عليه بيبرس البندقداري وقلادون الصالحي وأقطاي الجمدار وضربوه بالسيوف فهرب منهم لكشك خشبي فأحرقوه عليه فهرب منه ورمى نفسه بالنيل فضره بالسهم والنبال فقتل جريحًا غريقًا حريقًا، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر وقامت دولة المماليك. (زناتي، ٢٠١١: ١٦٨) صار المماليك بعد مقتل توران شاه أصحاب الحل والعقد، وكان من الطبيعي أن يعينوا أحدًا منهم لتبوء عرش السلطنة الشاغر، وأخيرًا قرر المماليك حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش فاختروا شجر الدر لتولي العرش. غير أن حكم شجر الدر تعرض للنقد من قبل الخليفة العباسي المستعصم بالله، الذي عاب على المماليك تنصيب امرأة في الحكم، فاقتنعت شجر الدر واقتنعت المماليك معها بضرورة تغيير رأس السلطة، فتزوجت من الأمير عز الدين أيوب وتنازلت له عن الحكم، بعد أن دام حكمها ثلاثة أشهر. وقف الأمراء الأيوبيون في الشام موقف العداء للنظام الجديد القائم في مصر، وقد جرت العادة منذ أيام صلاح الدين أن يكون للسلطان في مصر سيطرة على بقية الأمراء الأيوبيون في الشام، لذلك أرسلت شجر الدر عقب مبايعتها الخطيب أصيل الدين محمد لأخذ البيعة لها من أمراء الشام، ظل الأمراء الأيوبيون يعتبرون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر وبلاد الشام بوصفهم سلالة صلاح الدين، وأن ماجرى يعد خروجًا للسلطنة في مصر على البيت الأيوبي، ورفضوا أن يحلفوا يمين الولاء للسلطنة الجديدة، وشاركهم بعض الأمراء المماليك في بلاد الشام، فقد رفض المماليك القيمرية في دمشق أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة، ولم يعترفوا بما جرى في مصر من تغيير في نظام الحكم، فكتبوا إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب يعلمونه بموقفهم الراضين ويستدعونه للقدوم إليهم ليسلموا له دمشق، كما خرج الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الأيوبي صاحب قلعة الضبية من الديار المصرية احتجاجًا على ما حصل، فهاجم غزة وأخذها واستقر فيها، وثار الطواشي بدر الدين الصوابي الصالحي نائب الصالح أيوب بالكرك والشوبك، وسلم الحصنين إلى المغيث عمر الأيوبي بعد أن أخرجه من السجن، وخضعت باقي مدن بلاد الشام لأمراء من البيت الأيوبي، فستقر الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه في حصن كيفا وتصيبين، والكامل ناصر الدين محمد بن مظفر عازي في ميفارقين، والمنصور ناصر الدين محمد بن مظفر تقي الدين محمود في حماة، والأشرف مظفر الدين موسى بن المنصور إبراهيم في تل باشر والرحبة. انتهز الناصر يوسف الفرصة واستجاب لدعوة المماليك القيمرية، فزحف بجيشه نحو دمشق ودخلها وخلع الأمير جمال الدين بن يغمور، وعلى الأمراء القيمرية وعلى جماعة من الأمراء المصريين من مماليك الصالح أيوب، وبذلك خرجت بلاد الشام من قبضة شجر الدر، وانقسمت الجبهة الإسلامية بين مصر المملوكية وبلاد الشام الأيوبية. (الركبي، ٢٠٠٥: ٥٧) كان الصراع الدائر في منطقة إقليم الجزيرة بين الملوك والأمراء المحليين الأثر الكبير في تفتيت وحدة الإقليم الأيوبي أمام الزحف المغولي القادم من الشرق، الذي بدأ في غرب آسيا ضمن سياسة توسعية، فقد سيطر على إمبراطورية الصين الشمالية، وأواسط آسيا وفارس وبلاد الكرج والقوقاز والروسيا وبولونيا وآسيا الصغرى. عندما تولى مونكو خان منصب الخان الأعظم على المغول وضع أمامه هدفين، الأول: القضاء على الحشيشة في فارس، والثاني: السيطرة على

ما تبقى من العالم الإسلامي حتى أقاصي مصر، وعهد إلى أخيه هولاكو القيام بتنفيذ هذه المهمة بعد أن منحه إقليم فارس والولايات الغربية، وحدد له إطار العلاقات مع الخليفة العباسي، فوضع هولاكو خطته بالقضاء على الحشيشة ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر، وبعد أن حقق هدفه الأول سار لتحقيق هدفه الثاني وبدأ في غزو العراق. كانت الأوضاع في بغداد سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بالله بعدم جديته في إدارة شؤون البلاد العامة، وكانت الأخبار تصل إليه تباعاً عن اقتراب جيوش المغول ومع ذلك لم يستعد لمواجهةهم. حاصرت الجيوش المغولية عاصمة الخلافة بغداد، ثم دخلتها عنوة في شهر صفر عام ٦٥٦ هـ الموافق شباط/فبراير عام ١٢٥٨م ودمرتها، وكان الخليفة قد خرج منها وسلم نفسه للزعيم المغولي هولاكو دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان، انتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك، وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، ثم استسلمت الحلة والكوفة والموصل، وبذلك انتهت الخلافة العباسية في بغداد. (بن خلدون، ٢٠٠٠: ٤٣٣) انتقل الاجتياح المغولي من العراق إلى بلاد الشام، وكان هولاكو قد أرسل أثناء حصار بغداد فرقة عسكرية بقيادة أريق نوبين استطاعت الاستيلاء على أربيل، ومن ثم أشرف المغول على بلاد الشام، وقد حرص الزعيم المغولي على أن يقوي سيطرة المغول على إقليم الجزيرة، وأن يخضخ بصفة خاصة الأمير الأيوبي الكامل محمد صاحب ميافارقين الذي رفض قبول السيادة المغولية. كانت بلاد الشام تحت سيطرة ثلاث قوى هي: قوة المسلمين المتمثلة بالملوك والأمراء الأيوبيين، وقوة الصليبيين، وقوة الأرمن في قيليقية، أما الملوك والأمراء الأيوبيين فقد حكموا مدن ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب وحمص وحماة ودمشق، إلا أنهم افتقروا إلى رابطة اتحادية فكان كل أمير يعمل مستقلاً عن الآخر مما أضعف قوتهم. وأما الصليبيون الغربيون فقد وقفوا موقف المتردد في الصراع المغولي الإسلامي، بينما تحالفت الأرمن في قيليقية مع المغول وشجعوهم على القضاء على الخلافة العباسية وعلى الأيوبيين في بلاد الشام، واشتركوا معهم في قتال المسلمين. (الطرشة، ٢٠٠٦: ٢٩٦)

المصادر

١. إبراهيم شمس الدين (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م). قصص العرب الجزء الأول (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار الكتب العلمية .
٢. ابن العماد الحنبلي (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م). شذرات الذهب في أخبار من ذهب المجلد السابع (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع .
٣. ابن العماد الحنبلي (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م). قصة التتار من البداية إلى عين جالوت (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة .
٤. أبو بكر عبد الله بن أبيك الدواداري، «كنز الدرر وجامع الغرر - الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب»، الجزء السابع.
٥. أبو مسلم يوسف (٢٠٠٦م). الأمن وتاريخ مصر: الشرطة في مصر على مر العصور (الطبعة الأولى). الإسكندرية - مصر. مركز الإسكندرية للكتاب .
٦. أحمد فؤاد سيد، «تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب»، طبعة ٢٠٠٢، مكتبة مدبولي.
٧. أنور محمود زناتي (٢٠١١م). مجمع مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار زهران للنشر والتوزيع .
٨. بدر الدين محمود العيني، «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - العصر الأيوبي»، طبعة ٢٠١٠، ٤ أجزاء، دار الكتب والوثائق القومية.
٩. بيبرس المنصوري، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (١٩٩٥م). مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. الدار المصرية اللبنانية .
١٠. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق جمال الدين الشيال (١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م). مفرج الكرب في أخبار بني أيوب الجزء الثاني (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية.
١١. حسين مؤنس (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م). أطلس تاريخ الإسلام (الطبعة الثانية). القاهرة - مصر. الزهراء للإعلام العربي .
١٢. أحمد علي القضماني ، حول الماضي الوطني العريق للعرب الدروز واشتراكهم في التصدي للغزاة الاجانب الطامعين بحكم بلادنا، ٢ يونيو ٢٠١٢.
١٣. خالد الكركي (٢٠٠٥م). ورد ورماح: قراءات في البطولة (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٤. فوزية خالد الطواهيّة، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية (٢٠١٥م). النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين (المجلد ٤٢، العدد ٢). عمان - الأردن.
١٥. زبيدة محمد عطا (١٩٦٨م). الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. جامعة القاهرة .
١٦. سامي عبدالله المغلوث (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م). أطلس تاريخ العصر المملوكي (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. مكتبة العبيكان .
١٧. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٧٢م). مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار النهضة العربية .
١٨. سليم محاسيس (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م). معجم المعارك التاريخية (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار زهران للنشر والتوزيع .
١٩. سهيل زكار (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م). الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (الطبعة الأولى). دمشق - سوريا.
٢٠. سيد حسين العفاني (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م). صلاح الأمة في علو الهمة (المجلد السادس الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. مؤسسة الرسالة .
٢١. شاكر مصطفى (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م). صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه (الطبعة الأولى). دمشق - سوريا. دار القلم .
٢٢. قاسم عبده قاسم ، صلاح الدين الأيوبي وحرب الاسترداد الإسلامية (تحرير القدس من الفرنج) ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٢٣. صلاح الدين المنجد ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه صفحة ٣٨٨ ، طبعة دار الكتاب الجديد، بيروت.
٢٤. عارف العارف (٢٠٠٥م). المفصل في تاريخ القدس (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
٢٥. عبد الرحمن بن خلدون (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (الجزء الخامس الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
٢٦. عبد الرحمن عزام (٢٠١٣م). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني (الطبعة الثانية). الدوحة - قطر. دار بلومزبري مؤسسة قطر للنشر .
٢٧. عبد الستار الشيخ (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م). الحافظ الذهبي: مؤرخ الإسلام، ناقد المحدثين، إمام المعدلين والمجرحين (الطبعة الأولى). دمشق - سوريا. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع .
٢٨. عدنان الطرشة (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م). نهاية الأمم: سنة الله في إزالة الأمم من نهاية قوم نوح إلى نهاية أمة المسلمين (الطبعة الأولى). الرياض - السعودية. مكتبة العبيكان .
٢٩. عدنان زهران (٢٠٠٨م). نهضة الأمة بين عوامل الانحدار وسبل الارتقاء نظرة تاريخية تحليلية ومقارنة معاصرة (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار زهران للنشر والتوزيع .
٣٠. عرب دكتور (١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م). تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار النهضة العربية .
٣١. علي بيومي، «قيام الدولة الأيوبية في مصر»، الطبعة الأولى ، ١٩٥٢، دار الفكر الحديث للطبع والنشر.
٣٢. علي محمد الصلابي (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م). صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع .
٣٣. علي محمد الصلابي (٢٠٠٩م). الأيوبيون بعد صلاح والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار ابن الجوزي .
٣٤. عبد القادر الريحاوي ، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وتطورها عبر العصور مجلة الباحثون العلمية العدد ٧١ أيار ٢٠١٣. عمرو موسى باشا. الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك (الطبعة الثانية). دمشق - سوريا. المكتبة العباسية .
٣٥. فؤاد صالح السّيد (٢٠١٤م). معجم ألقاب السياسيين في التاريخ العربي والإسلامي (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مكتبة حسن سعد العصرية .

٣٦. رشيد عبد الله الجميلي، مجلة المؤرخ العربي (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م). العلاقات السياسية بين الأيوبيين والموحدين في المغرب الأقصى (العدد ٣٥ السنة الرابعة عشرة). بغداد - العراق.
٣٧. محسن محمد حسين (٢٠٠٢ م). الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين (الطبعة الأولى). أربيل - كردستان. دار تاراس للطباعة والنشر.
٣٨. محمد العروسي المطوي (١٤٣١ هـ - ١٩٨٢ م). الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار الغرب الإسلامي.
٣٩. محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي، تحقيق علي كنعان (٢٠٠٨ م). تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار (الطبعة الأولى). أبوظبي - الإمارات. دار السويدي للنشر والتوزيع.
٤٠. محمد جمال الدين سرور (١٩٩٥ م). تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. دار الفكر العربي.
٤١. محمد حمدان السيد (١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م). الفرق في الإسلام في مئة سؤال و جواب: جزورها وحاضرها (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. دار المأمون للنشر والتوزيع.
٤٢. محمد رجب البيومي (١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م). صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي (الطبعة الأولى). دمشق - سوريا. دار القلم.
٤٣. محمد سهيل طقوش (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م). تاريخ الأيوبيون في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، (الطبعة الأولى). بيروت - لبنان. دار النفائس.
٤٤. محمد فريد أبو حديد (١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م). صلاح الدين الأيوبي وعصره (الطبعة الأولى). القاهرة - مصر. مطبعة دار الكتب المصرية.
٤٥. محمود شاکر (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م). التاريخ الإسلامي الجزء السادس (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. المكتبة الإسلامية.
٤٦. نعمان طيب سليمان، المدارس في العهد الأيوبي بمصر، رابطة العلماء السوريين، ١٩ ربيع الثاني ١٤٣٦ هـ.
٤٧. مرتضى الزبيدي، تحقيق صلاح الدين المنجد (١٩٩٥ م). ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب (الطبعة الثانية). بيروت - لبنان. دار الكتاب الجديد.
٤٨. منذر الحايك (٢٠١١ م). العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية (الطبعة الأولى). دمشق - سوريا. دار صفحات للدراسات والنشر.
٤٩. نجاته سليم محاسيس (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م). معجم المعارك التاريخية (الطبعة الأولى). عمان - الأردن. زهران للنشر والتوزيع.
٥٠. وفاء محمد علي، «قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام»، طبعة ١٤٠٧ هـ، ١٩٢ صفحة، دار الفكر العربي.